

التراث المخطوط لأبي راس الناصري.

د. بن عتو بلبروات جامعة سيدي بلعباس

ميز أهل العلم بين نوعين من التراث المخطوط، تراث في مجال العلوم العقلية مثل المخطوطات الدينية، الأدبية، والتاريخية... وتراث في مجال العلوم العقلية مثل الطبيعة، الطب والصيدلة، التقنية، الرياضيات، والفلك وغيرها. وقد أضحى هذا التراث المخطوط بنوعيه ميراثا ثمينا للأجيال المتعاقبة، ويتعين عليها استغلاله ولا يتأتى ذلك إلا بالتفتيش عنه وتحقيقه وطبعه أو نشره، وهذه مهمة حضارية يتحملها المتخصصون مثلما تحملها علماء أوروبا الغربية في عصر النهضة عندما عزموا على استغلال التراث اليوناني والروماني.

وتتوفر بلادنا الجزائر على كمية ضخمة من هذا التراث المخطوط يتوزع على مختلف ولايات الوطن، وما زال بعيدا عن متناول الباحثين والدارسين، وهو يعيش اليوم وضعا صعبا، قليل منه معروف، تقوم المؤسسات الحكومية بحمايته والمحافظة عليه، وأكثره ملكية خاصة بأيدي لا تدرك قيمته الحقيقية ولا تتوفر أدنى شروط المحافظة عليه وصيانته وحمايته من التداعي والتلف والضياع.⁽¹⁾

في هذا السياق تندرج دراستنا حول التراث المخطوط لأحد أعلام الفكر والثقافة بالجزائر العثمانية وهو أبو راس الناصري، انطلاقا من تساؤلات رأيناها مفيدة وهي:

- ما هي العوامل التي جعلت من أبي راس الناصري مؤلفا بارزا في علوم شتى؟
- ما هي التنبهات التي يمكن تسجيلها حول مؤلفات العلامة أبو راس الناصري الضائعة أو الباقية، المخطوطة أو المطبوعة؟

- ما هي وضعية التراث الناصري في الوقت الحالي؟

1- التعريف بأبي راس الناصري وعوامل بروزه في مجال التأليف:

لعلامة أبو راس الناصري، هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي العسكري المكنى بأبي راس لكبر رأسه. ولد في بيئة فقيرة يوم 08 صفر 1165 هـ/ 27 ديسمبر 1751 م، بقلعة بني راشد بين جبل كرسوط وجبل هونت بالغرب الجزائري، وارتحلت أسرته إلى متيجة حيث ماتت هناك أمه زولة بنت السيد الفرح ابن الشيخ السيد اعمر بن عبد القادر التوجاني. بعد وفاة الأم، انقلب الوالد إلى حوز مجاجة بضواحي مدينة الجزائر، واعتكف على تعليم القرآن للرجال والصبيان. ولمحمد أبي راس الناصري أخوان: عبد القادر، وابن عمر، وهو الأكبر الذي انقلب بعد وفاة الوالد بإخوته إلى المغرب الأقصى. وكان محمد وقتئذ صغير السن، يحمل على العاتق.⁽²⁾ قرأ محمد أبو راس في المغرب الأقصى القرآن الكريم، وأحكامه، وحفظها عن ظهر قلبه، وأظهر نجابة في ذلك وتفوق على نظرائه من القراء، ثم درس على الشيخ منصور تلميذ الشيخ أحمد بن ثابت بجبل ترارة، وأتقن القرآن برواية قالون ورواية ورش. وبعد، انتقل إلى قراءة الفقه على فقهاء معسكر، ثم توجه إلى مدينة مازونة حيث أظهر تفوقاً في قراءة مصنف خليل، وبالتالي طار صيته في المشارق والمغرب.

ومن مازونة عاد مجدداً إلى معسكر وقصد الشيخ عبد القادر المشرف الذي كان يدرس بعواجة، وأعجب هذا الأخير بتفوق أبي راس. ثم توجه إلى بيت أخيه بوادي أغرم، وتزوج امرأة من أولاد الشيخ محمد بن يحيى. درس محمد أبو راس مدة ست وثلاثين سنة بمعسكر، وكان يورد درسه على التحقيق والتدقيق ويوشحه بتمتة أو لطيفة مهمة أو تنبيه وجيه أو تكميل وتذييل، وصارت حضرته في العلم تذكر في الآفاق وتناظر دروس مصر والشام وتونس والعراق.

ذهب إلى الحج سنة 1204 هـ/ 1790 م وقرأ على الشيخ مرتضي الزبيدي،⁽³⁾ بالقاهرة، ولما رجع سنة 1205 هـ/ 1791 م شارك في فتح وهران، ثم تقلد الفتوى، ثم القضاء، والخطابة، لكنه عزل سنة 1211 هـ/ 1797 م، ليتوجه إلى فاس ويفد على السلطان مولاي سليمان، فأهدى له نسخة من الشرح الأكبر للمقامات الحريية، والعقيقة، فأجازه واشتهر بمدينة فاس ولقبه علماًؤها بالحافظ، ودعاه أمير خراسان لولاية أحد الأقاليم فامتنع.⁽⁴⁾ توفي محمد أبو راس يوم 15 شعبان 1238 هـ/ 27 أبريل 1823 م متأثراً بمرض الطاعون حسب رواية مسلم بن عبد القادر في كتابه خاتمة أنيس الغريب والمسافر، وضحجه بمدينة معسكر بنهج بابا علي، تاركا وراءه مؤلفات عديدة بعضها ما زال محفوظاً، والبعض الآخر مفقوداً.

ومن العوامل التي كان لها دورا في بروزه في مجال التأليف، حتى أنه حاز المرتبة الثانية بعد السيوطي⁽⁵⁾ من

حيث التأليف هي كالآتي:

* قدرته القوية على الاستيعاب وذاؤه وفطنته، فقد لاحظنا ذلك في مساره الدراسي حيث كان يتقن القراءة ويتفوق على نظرائه من المتدربين في شتى الدروس التي كان يتلقاها من شيوخه.

* ممارسة مهنة التدريس لمدة ست وثلاثين سنة بمدينة معسكر (عاصمة بايليك الغرب الجزائري في عصره) ، بحيث تطلب منه ذلك خوض غمار البحث العلمي وتأليف الكتب ليكون ذلك دعما لطلبته في تحصيلهم العلمي.

* تولى أبو راس مناصب الافتاء والقضاء والخطابة، وأعتقد أن مثل هذه المناصب تدفع أصحابها من ذوي الضمير الحي والأخلاق الفاضلة إلى البحث في علوم شتى قصد التحكم في التحديات التي تفرضها طبيعة الوظائف السابقة الذكر وبالأخص وظيفة المفتي.

* عاصر أبو راس الناصري بوادر نهضة جزائرية في عهد الداوي محمد بن عثمان باشا⁽⁶⁾ 1766-1791، وكان أحد كوادر النهضة في بلاط الباي محمد الكبي⁽⁷⁾ بمعسكر، خصوصا أن هذا الأخير كان يهتم كثيرا بالفكر والثقافة ويقرب العلماء الفقهاء إلى مجلسه، وعندئذ يمكن الاعتقاد أن أجواء الإصلاح والنهوض بالذات حفز أبو راس وشجعه على التأليف في تخصصات مختلفة في مجال العلوم العقلية وبالأخص في العلوم النقلية.

* انتقال العلامة أبو راس الناصري إلى بلاط الملك سليمان بن محمد بن عبد الله بمدينة فاس، بعد عزله سنة 1797، لأسباب تبقى مجهولة لدى المؤرخين لكن ما نعتقده أن سنة عزله تتوافق مع وفاة الباي محمد الكبير في ظروف غامضة وربما يكون أبو راس الناصري قد اكتشف أمرا فعزل نفسه والتجأ إلى فاس -عاصمة المغرب الأقصى- في العصر- الحديث- وما نود الإشارة إليه أن عهد الملك سليمان هو الآخر كان مفعما بالإصلاح ويظهر أنه ساعد أبو راس على التأليف في علوم شتى.

2- تنبيهات وملاحظات حول التراث المخطوط لأبي راس الناصري:

أ-التنبيه إلى إعادة النظر في ضبط مؤلفات أبو راس الناصري:

حدد المستشرق البولندي أغناطيوس يوليانونوفتش كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي، عدد مؤلفات أبو راس الناصري ووقف على 136 كتابا، ويظهر أنه اعتمد على المخطوطة المنسوبة لأبي راس الناصري المسماة بـ: شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التأليف⁽⁸⁾. ونجد هذا الرقم معتمدا عند الكثير من باحثينا لكن إذا حاولنا إعداد قائمة بمؤلفات الناصري فإنه يستحيل بلوغ هذا الرقم نظرا للاعتبارات التالية:

- هناك كتباً منسوبة لأبي راس الناصري مثل : عجائب الأخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرنسيين. وهو أوراق قليلة فيها خبر عن حوادث الاحتلال الفرنسي وموقف الزمالة والدواير منه وتجنيد الشباب المسلم في الجيش الفرنسي. وبالتالي نلاحظ أن صاحب هذا المخطوط عاصر الاحتلال الفرنسي، ويستحيل أن يكون أبو راس الناصري الذي فارق الحياة سنة 1823 أن يتوقع أشياء تتسم بالتحديد والدقة. وما يلفت الانتباه أن هذا المخطوط يحمل عنوانين آخرين هما:

* أقوال التأسيس فيما وقع وسيقع بين المسلمين والفرانصيص.

* صحائف الأخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرانصيص.

وبالتالي نعتقد أن هذه العناوين الثلاثة لكتاب واحد منسوب إلى أبي راس الناصري قد اعتمدت ضمن تعداد مؤلفات الرجل العلامة وهو ما لا يقبله المنطق.

-تعدد عناوين الكتاب الواحد مثل:

* درء السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة. وتوجد نسخة منه بخزانة المرحوم البشير المحمودي، وورد في دليل مؤرخ المغرب لابن سودة أن له عنوان آخر وهو الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة. وتوجد نسخة منه في مدينة مكناس.

* الوصيد في شرح سلوانية الصيد. لابن عبد الجبار الفجيجي. والكتاب نفسه يحمل عنوان آخر، قام الأستاذ الباحث حمدادو بن عمر بجامعة وهران بتحقيقه وطبعه وهو : الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية. وعندئذ من غير المعقول أن يندرج العنوانين ضمن الترقيم الذي توصل إليه المستشرق كراتشوفسكي.

* قام أبو راس الناصري بتفسير القرآن الكريم في ثلاثة أسفار أي مجلدات تحت عنوان واحد: مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للبعد الذليل في التيسير إلى علم التفسير. وبالتالي أمامنا كتابا واحدا وليس ثلاثة كتب.

* أنجز الناصري كتابا في الفقه أسماه: درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاوي والخراشي. وأتمه في ستة مجلدات. وعندها لا يمكن اعتماد ستة كتب بعنوان واحد في عملية ترقيم مؤلفات أبو راس الناصري والأمر نفسه ينطبق على مؤلفات أخرى موزعة إلى مجلدات.

ب-التنبيه إلى ضياع مؤلفات أبو راس الناصري:

ما ننبه إليه بهذا الصدد أن أبا راس الناصري قد ترك لنا تراثا ثقافيا، ضاع جزء منه في حياته وبعد موته،

بفعل عوامل تتعلق بطبيعة كتاباته ونبين ذلك كما يلي:

ب1-خوض الناصري في تاريخ الأنساب بالجزائر في عصر اندثار علم النسب:

اهتم أبو راس الناصري بالأنساب في بلاده انطلاقاً من المثل القائل: "من لا يعرف الناس ليس من الناس"، فألف كتاب الوسائل إلى معرفة القبائل، كتاب القصص الفتانة في ذكر البربر وزناتة، وكتاب مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف وذهب. ويذكر المؤرخون أنه انتقد كثيراً من أنساب القبائل البربرية المنتمية لآل البيت وذلك ما جر عليه محتته بإحراق الكثير من كتبه وتأليفه وضياع الكثير منها في حياته وبعد وفاته⁽⁹⁾.

ب2-التهجم على مناوئي دولة الجزائر العثمانية في عصره:

من خلال عناوين بعض المخطوطات نلاحظ أن أبا راس الناصري قد حدد موقفه من الحركات المناوئة للحكم العثماني في الجزائر، التي اشتد لهيبها في مطلع القرن التاسع عشر، في كامل القطر الجزائري ونخص بالذكر الحركة الدرقاوية المدعومة من تونس والمغرب الأقصى، فقد ألف:

- درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة.

-المعالم الدالة على الفرق الضالة.

أ3-اهتمام الناصري بسياسة وسير الملوك والرؤساء:

ونعتقد أن مؤلفات الناصري في هذا المجال وما اكتنفها من فضح وكشف لعيوب بعض الحكام المسلمين

دورا في ضياع مخطوطاته، فقد كتب ما يلي:

-نباهة الغمر من أبناء العمر بأبناء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء.

يظهر أن هذا المخطوط يصب في التاريخ السياسي لبلدان معينة الأرجح أن تكون عربية، ونفترض أن الناصري قد

حذا حذو الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الحجار العسقلاني صاحب كتاب "أبناء الغمر في

أبناء العمر". في ثلاث أجزاء، ويتناول التاريخ السياسي والثقافي لمصر والشام، والكتاب متوفر بالمكتبة الوطنية

الجزائرية رقم 1597، 1598، 1599، 1600.⁽¹⁰⁾

-كشف النقاب ورفع الحجاب. ويظهر أن الناصري قد كتب هذا الكتاب بناء على أمثال وحكم ومواعظ سطرها

الباش كاتب لدى بلاط الباي حسن بوهران السيد مسلم بن عبد القادر المشهور بكتابه:

-أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر والذي لم يعثر إلا على خاتمه التي حققت ونشرت

بعد الاستقلال.

-عقد الجواهر في مدائح ابي المرتضي حسين باشا ومحاسن الجزائر. وتوفي الرجل سنة 1248هـ/ 1832م.

- إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم. وقد وضعه على كتاب صغير في الحكم والمواعظ والآداب والأمثال لصاحبه مسلم بن عبد القادر. أنهاه عام 1234هـ / 1819م، وهو الآن مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط مرقم بـ5553، في 44 ورقة من الحجم الصغير.⁽¹¹⁾
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
- الزهرة الوردية في الملوك السعدية. وحصره زمانا من 918 إلى 1059هـ / 1512-1649م.
- الرياض المرضية في شرح "الغوثة". وقد تحدث الناصري مع مؤلف الغوثة واستفاد بما فيه الكفاية من شرحه لها.
- العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.
- الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلوية.
- تحفة النفسا في ملوك فرنسا.

ج- التنبيه إلى تبعثر مؤلفات الناصري الباقية:

لاحظنا أن مخطوطات الناصري التي نجت من الضياع، لا تزال مبعثرة هنا وهناك وبنسخ محدودة سواء في الجزائر أو في بلدان مجاورة، مما يجعل الباحث في تراث أبو راس حائرا ويستلزم منه مشقة وجهدا مضنيا ومنتسعا من الوقت لجمعها، فقد نجدها مخطوطات تعد علي أصابع اليد الواحدة بالمكتبة الوطنية الجزائرية وبالمكتبة الوطنية الفرنسية وبالمكتبة الوطنية المغربية، ومخطوطات أخرى لا توجد إلا بخزانات العائلات مثل خزانة الشيخ المهدي البوعبدلي، ومكتبة عبد الرحمن الجيلالي وغيرهم من رجالات الفكر والثقافة في الجزائر المعاصرة.

3-وضعية تراث أبو راس الناصري في الوقت الحالي:

ما يشغل بال الباحثين الجزائريين في وقتنا الحالي ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادي، هو افتقارهم لقائمة المخطوطات الناجية من التلف والضياع للعلامة أبي راس الناصري، ويتطلب ذلك عملية تفتيش وبحث عن المخطوطات لمدة قد تطول أو تقصر- تحت إشراف مخابر أو وحدات بحث علمي في داخل الجزائر وخارجها. وما يزيد الباحثين مشقة أن عددا من المخطوطات موجودة بخزائن عائلية أو صدت معظمها أبوابها أمام أهل الاختصاص.

وبهذا الصدد يمكن لنا تعداد المخطوطات المحققة والمطبوعة أو المحققة فقط أو التي في طريق التحقيق حتى يتسنى للباحث أن يرصد المخطوطات التي تنتظر التحقيق،فينقب عنها إن كانت لا تزال موجودة. ونوردها كالاتي:

* الحلل السندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية . وحققته الباحثة المغربية سليمة بن معمر في إطار رسالة دكتوراه دولة .

* الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية . حققه الباحث الجزائري حمدادو بن عمر وهو مطبوع .

* الدرّة الأنيقة في شرح العقيدة . مخطوط محقق ومطبوع .

* فتح الإله ومنتها في التحدث بفضل ربي ونعمته . حققه وطبعه الأستاذ محمد بن عبد الكريم الجزائري .

* عجائب الأسفار ولطائف الأخبار . جزءان . حققه وطبعه الدكتور غالم محمد من جامعة وهران .

* زهر الشمايخ في علم التاريخ . وهو في طريق التحقيق من طرف وحدة بحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران .

* الكوكب الدرّي في الرد بالجدري . حققه الأستاذ بوكعب بلقرّد بمعسكر سنة 2004 .

وعليه نلاحظ أن تحقيق ونشر تراث أبو راس الناصري ما زال بطيئا وضئيلا وأغلبه لا يزال مخطوطا، ونستغلّ المقام للإشارة إلى عدد المخطوطات التي علمنا أنها موجودة وهي تنتظر التحقيق :

* الحاوي لنبد من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي . توجد نسخة منه عند الدكتور بلشير عمر بجامعة معسكر .

* الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة . توجد نسخة منه بمدينة مكناس .

* الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية . وهو في جزءين ، وكلاهما مفهرسان بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، الجزء الأول تحت رقم 1893 . والجزء الثاني تحت رقم 1894 .

* إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم . مودع بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم 5553 .

* نبذة من تاريخ الجزائر . مودع بالمكتبة الوطنية الفرنسية ، مصلحة المخطوطات الشرقية ، ضمن مجموع

تحت رقم 4614 عربي .

وفي ختام هذه الدراسة نود القول أنه لا بد للجهات الرسمية أن تقدم دعمها المالي والفني لأصحاب الخزانة العائلية والزوايا المنتشرة عبر ربوع القطر الجزائري قصد الحفاظ على مخطوطاتهم بشكل عام وصيانتها من التدهور مقابل فتح أبوابها للباحثين المتخصصين من أجل فهرستها وتحقيقها ونشرها ، وبدون شك سيكون لتراث أبي راس الناصري نصيب في ذلك ، كما نؤكد على ضرورة وتواصل الباحثين فيما بينهم ولعمل المخابر والمراكز البحثية

أفضل جسر للتواصل والتعاون، ونحن نعلق آمالا على المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهرا ن الذي أخذ يهتم بالتراث الجزائري ذي الصلة بالسكان والمجتمع، وكذا مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية بشمال افريقيا بجامعة وهران.

الهوامش:

- (1) لعرج عبد العزيز، تقديم لأعمال الملتقى المغاربي الثالث للمخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، الطبعة الاولى، 2007، ص 05.
- (2) لم نعثر على الأسباب التي جعلت أسرة أبو راس الناصري ترتحل إلى المغرب الأقصى بعد وفاة الوالد.
- (3) الشيخ مرتضى الزبيدي: عاصر العلامة أبو راس الناصري، وهو من كبار علماء الأزهر، يكنى بأبي الفيض لفيض وغزارة علمه ومعرفته، ومن مآثره، شرحه للقاموس في أربعة عشر مجلدا وسماه تاج العروس. توفي سنة 1205هـ/ 1790-1791م.
- (4) أبو راس الناصري، فتح الإله ومته في التحدث بفضل ربي ونعمته. تحقيق وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990. ص ص 18-24.
- (5) السيوطي جلال الدين: أحد علماء مصر، عدد مؤلفاته في كتابه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، فكانت نحو الثلاثمائة مؤلف، وأبو راس الناصري يأتي بعده في المرتبة الثانية بعدد يفوق المائة مؤلف.
- (6) اشتهر الداوي محمد بن عثمان باشا طيلة حكمه 1766-1791 بصرامته في علاقاته مع الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية وبسياسته الإصلاحية التي عبرت بوضوح عن بوادر نهضة جزائرية، فشلت بوفاة الرجل.
- (7) الباوي محمد الكبير: قاد حركة الإصلاح في حدود بايليك الغرب الجزائري إثر توليه الحكم بين 1779-1797 وكان تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792 من الاحتلال الاسباني أكبر إنجازاته. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الباوي يمكنك مطالعة: بلبروات بن عتو.
- (8) الباوي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797. رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002.
- (9) شمس معارف التكليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التأليف: مخطوطة مودعة بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 4614. وأثيرت شكوك حول قائمة المؤلفات المثبتة في المخطوطة، ويظهر أنها ليست المخطوطة الأصلية بل هي منقولة بناء على بعض الدلائل التي تحتاج إلى تأكيد.

(9) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، الجزء الثالث، ص 576.

(10) Fagnan, E. *Catalogue Général des Manuscrits de la bibliothèque nationale d'Algérie*.

Bibliothèque Nationale D'Algérie, 2 ème édition, 1995. p.443.

(11) عبد الحق زريوخ. أبو راس الناصري الجزائري ومؤلفاته، مقال منشور بالموقع الإلكتروني:

www.el-awsat.com